ان بعض الناس كالحشرات المؤذية ، الخير فى وطئها بالقدم

ولعل الطبيب بين كل الناس هو الشخص الوحيد الذى يستطيع ان يفعل ذلك وهو آمن ولكنه مع ذلك لايفعل لانه ليس دبانا للعباد .

قال لى الطبيب الذى روى هذه القصة :

قررت بينى وبين نفسى وبينى وبين لله ، وانا خارج من دار الحاج فتح الباب ، الا آخذ منه اجرا ، وان أتكفل بكل مايلزمه من الدواء ، وان اعينه بفضل من الصدقة ان قدر له الشفاء .

ان الطبيب يشهد فى قرى اريف كثيرا من مآسى البؤس والفاقة ، ولكن فى هذه المرة كانت المأساة كما بدت لى مكتوبة بقلم احمر ، وكان الهيكل العظمى الذى ظهر بادق تفاصيله تحت الاهاب الذابل الباقى من جلد الحاج فتح الباب ، بين كومة الخرق والاطمار التى التف بها فاستحالت من القذارة وعرق الحمى الى مثل لون الاوحال .. كان هذا كله واندار المهدمة العارية من كل شىء يمت للحياة البشرية بسبب شهودا على أن رحمة الله ان تكن مرت يوما بهذه الدار ، فانها لم تترك بطاقة ، ولا وضعت حتى قبلتها على الباب ...

قضيت بجوار الحاج فتح الباب ثلاث ساعات ، أفصد وأحقن واجس ، واذكى السراج الذى يطفىء ، وقد نسيت كل شىء

الا ان امامى ذبالة تبعث آخر قبس لها ، وانا املها الوحيد فى البقاء ، ولم اشعر فى حياتى بمثل السعادة التى شعرت بها عند ما ايقنت ان انحاج فتح الباب قدعاد قلبه للخفوق : وعاد نفسه الخافت للتردد ، واستدرت حول سراجه المنطفىء هالة النور ...

خرجت من الدار أجر قدمى جرا من التعب : واحجب عن عينى الشمس التى ازداد وهجها بعد هذه الظلمة الموحشة اربعة اضعاف ومكثت بضع لحظات على مصطبة الحاج فتح الباب اتنسم الهواء الطلق بشراهة كانى حرمت منه ثلاثة ايام ، وعندما تفتحت عيناى للنور رايت من حولى خمسة اشباح هم اخو الحاج فتح الباب واولاده الاربعة الذين لم ار منهم احدا يمد لى يده فى المعركة بمعونة ، او يلقى على الاب الذى كان يموت كلمة عطف تشعره بانه يموت فى أحضان احباء .

وأمسك بتلابيب ابنه الاكبر وراح يدق رأسه فى الجدار كالمجنون وصاح : « ياكفرة تسرقون مالى وتاكلون التفاح »

يسمع من فمها ، رايها فيه ، فظن المسكين لاول وهلة وتحت تأثير الخيال الصبياني ، ان الفتاة تمثل معه دور غادة الكاميليا (مرجريت جوتيه) وهى فتاة من بنات الهوى ضحت بغرامها وحبيبها متأثرة بتوسلات ابيه

على ان الواقع المر فى النهاية غلب الخيال المغمور فى الاحلام ، واحمد الله على ان كبرياء اخى رفضت ان تتحطم تحت وقر هذه الصدمة الفاجعة ، فتقبل الطعنة شجاعا ، وها هو ذا فى طريقه اليك ، والى عروسه ، والى ذراعى امه ، وله من عطفكم جميعا سلوى وعزاء عن هذا المصاب .

اما عن نفسى ، انا الشخص الذى بلا عروس ولا ام ولا مستقبل انا الذى اخذت غصبا من حياتى المدرسيه فى منتصف الطريق لاوهب للثور والمحراث ، فما اظننى أحزن احدا ، أو احفر هوة لأحد ، ان قلت لكم ان الفتاة قد وقعت من نفسى ، ووقعت من نفسها ، واننا سنكون الليلة بين يدى المأذون ! !

عفوا يا ابى ووداعا ، واذا كانت لديك لعنة او براءة منى الى يوم القيامة فأرجو ان تؤجلها حتى يفصل بيننا وبينكم البحر ، اذ نسافر الى مرسيليا فى اول باخرة حيث استانف هناك فى رعايتها ، دراسة الحقوق ..

ولعل لى فى امرأة ابى شفيعا من هذه اللعنة ، وقد اصبحت مدينة لى بدينين ، انقاذ ابنها ، وارتاحتها الى الابد من وجهى الكريه !

ان بعض الناس كالحشرات المؤذية ، الخير فى وطئها بالقدم

ولعل الطبيب بين كل الناس هو الشخص الوحيد الذى يستطيع ان يفعل ذلك وهو آمن ولكنه مع ذلك لايفعل لانه ليس ديانا للعباد .

قال لى الطبيب الذى روى هذه القصة :

قررت بينى وبين نفسى وبينى وبين الله ، وأنا خارج من دار الحاج فتح الباب ، الا آخذ منه اجرا ، وأن أتكفل بكل مايلزمه من الدواء ، وأن اعينه بفضل من الصدقة ان قدر له الشفاء .

ان الطبيب يشهد فى قرى اريف كثيرا من مآسى البؤس والفاقة ، ولكن فى هذه المرة كانت المأساة كما بدت لى مكتوبة بقلم احمر ، وكان الهيكل العظمى الذى ظهر بادق تفاصيله تحت الاهاب الذابل الباقى من جلد الحاج فتح الباب ، بين كومة الخرق والاطمار التى التف بها فاستحالت من القذارة وعرق الحمى الى مثل لون الاوحال .. كان هذا كله واندار المهدمة العارية من كل شىء يمت للحياة البشرية بسبب شهودا على أن رحمة الله ان تكن مرت يوما بهذه الدار ، فانها لم تترك بطاقة ، ولا وضعت حتى قبلتها على الباب ...

قضيت بجوار الحاج فتح الباب ثلاث ساعات ، أفصد وأحقن وأجس ، وأذكى السراج الذى يطفىء ، وقد نسيت كل شىء

ـ انا حزين ؟ .. ان حزني لم يبدأ الا منذ قلت ان اخي سيبرا من الداء !!

واذهلني هذا الاعتراف الصريح فقلت باشمئزاز :

ـ انت اخوه ؟ ..

قال : نعم انا اخوه .. وهناك أربعة من أولاده او استطاعوا لقتلوك لانك بسطت له حبل الرجاء .. . وثمة مئات من ضحاياه في القرية سيلعنونك غدا لانك انقذته ربما لبضع سنوات اخرى ؛ من القرن المحجوز له في جهنم ... ان هذا الرجل البائس المسكين يملك اكبر حانوت في القرية ، وعشرين فدانا من أجود الارض ، وفي ثنايا اطماره المهلهلة توجد عدة مئات من الجنيهات .. لقد جمع هذه الثروة الضخمة من الربا ، ومن دموع وعرق ستة أولاد وزوجة ، قتلها وقتل ثلاثة منهم بالجوع والحرمان .. ان افخر «اغموس» سمح به لاولاده ـ حتى في الاعياد ـ هو الماء الذي كان يسلق فيه بيض الدجاج ، ليبيعه في السوق ... ولقد ماتت ابنته الوحيدة كمدا فبخل على قبرها بعبرة ، وكان كل ما قاله في رثائها انه استراح من فم كان يطعمه لوجه الله ... ولعل الجمعة الوحيدة التي ذهب فيها للصلاة كانت مجرد صفقة للبيع والشراء . كان يفصل القشدة يومئذ من قصعة اللبن الرائب ـ وكان لا يأتمن على هذا العمل احدا من اهله ـ فأتت دجاجة وولغت في الاناء ، فضربها بعصاه ، فانصدعت ساقها واشرفت على الهلاك ، فذبحها وهو يبكي ويولول ، وطلب من امرأته ان تنضجها ريثما يعود من الصلاة ، وظن اولاده انهم مقبلون على وليمة ، وان اباهم بدا نور التقوى والرحمة يشرق في قلبه المظلم . ولكنه عندما عاد من المسجد ورأى الدجاجة موضوعة على الخوان ، والاولاد مصطفين من حوله ، خطف الدجاجة من مقط عيونهم خطفا ، وضحك ضحكة الشيطان ، وصاح بهم : منذ متى يا كلاب تأكلون الدجاج .. لقد باع الدجاجة في المسجد بالمزاد ! !

وعندما مرضت امراته مرض الموت اشتهت ان تذوق التفاح ، فارسلت ابنها الاكبر الى السوق ومعه حفنة من القمح قايض عليها بثلاث تفاحات ... وبينما المرأة المحتضرة ترفع الاولى الى فمها دخل رجلك المسكين ، فأمسك بتلابيب ابنه الاكبر ، وراح يدق رأسه على الجدار بجنون ، حتى اعترف له بماكان ، فصاح بالمرأة انت طالق ثلاثا ان لم يعد هذا التفاح الى صاحبه ، ويرد القمح الذى سرقتموه يالصوص ... ياكفرة تسرقون مالى وتأكلون التفاح !!

لقد كانت كل لذته فى الحياة ان يجعل التسعة عشرة ولومن دمعة يتيم ، وان يجعل التسعة والتسعين مائة ولو اكملها بحبة من اعين أولاده التعساء

قلت وانا فى ذهول مما اسمع :

ـ وفيم استدعيتمونى اذن ؟

قال : ان الرجل القى فى روع كل واحد من اهل القرية ان اولاده يضعون له السم فى الطعام ليموت ، وان دمه فى رقابهم ، وانه برىء منهم الى يوم القيامة ، وهكذا ابى الا ان يلاحقهم بشبحه حتى بعد الممات ، والواقع انى ـ انا أخوه ـ لو استطعت أن ادس له السم لما ترددت لحظة ، ولكنك انت لو وضعت بضع قطرات منه فى هذا الدواء ، لانقذت القرية كلها من سرطان ، ولادخلك الله الجنة بلا حساب !! قال الطبيب الراوى :

انى حتى هذه اللحظة كنت اقول فى نفسى لعل الرجل منتفع يتحدث عن حاجز يقف فى سبيل استمتاعه بمال لم يتعب فيه ، ومن الطبيعى ان يكون حديثه مشوبا بكثير من المرارة والمبالغات ، ولكن عندما قرعت مسامعى كلمة السم استحال شكى الى يقين ، ووقف المقياس فى يدى ، ونظرت الى الرجل نظرة هائلة ، فراعنى ان عينه لم تطرف تحت عينى ، وانه كان يعنى ما يقول ... كان يريد منى ان اشترك كطبيب فى جريمة قتل ليخلو له الطريق

وهوى على يدى فقبلها غصبا

واردت ان اساير ه قليلا حتى أسبر غوره تماما فسألته بهدوء :

ـ أانت أحد ورثته ؟

فأجاب : كلا ... انما انا ابكي من اجل أولاده الابرياء ، وانا احمد الله في نعمة احمده عليها ولا ابغي المزيد .

قلت : الك بنات في سن الزواج ؟

قال : انى عاقر ، وقد اتيحه الى القبر في بضع سنوات وخطر لي ان اساله ان كان يعتزم الزواج من ارملة اخيه ، ولكني تذكرت الظروف التعسة التي ماتت فيها الزوجة ، وان الدار لم يكن بها نساء .

قلت : وهبني طاوعتك على قتله فأي جزاء انالك من مثل هذا العمل الكريه ؟

قال : ان لم تكفك دعوات قرية بأسرها فأنا واثق أن الاولاد مستشهدون لان يقاسموك الميراث ! !

وضعت السيادة في عنق الزجاجة دون ان اضيف اليها شيئا ثم رفعتها ، وقلت له في صوت حازم هادىء :

ـ اسمع يا رجل .. هذا دواء اخيك ... وستعطيه اياه انت ... وسيبرأ ... ان الله هو وحده الذي يدين العباد ، وهو وحده الذي له حق القصاص ، واذا جرى على اخيك شيء ليس في الحسبان فسأتولى انا ابلاغ البوليس بانك انت واولاده الذين قتلتموه ..

وتناول الرجل الزجاجة بحركة يائسة ، وخرج دون ان ينطق بكلمة وهو مطأطىء الرأس كأنما يرزح تحت جبل .

ومر اسبوع ، ولاقيت حلاق القرية مصادفة في السوق فسألته عن الحاج فتح الباب .

فقال : لقد شفى الكلب من مرضه .

قلت : أانى هذا الحد تكرهونه ؟

قال : ان اسمه فى القرية الحاج عزرائيل !! لقد ذهب الى بيت الله ذئبا وعاد منه ضبعا لايتعفف حتى عن جيف الاموات ...

قلت : اهو غنى كما يقولون ؟

قال : هو أغنى رجل فى القرية الان .

قلت : اذن ارجوك ان تحصل لى منه مائة وثلاثين قرشا عن اتعابى وثمن الدواء ، ان غيره أولى بالاحسان .

قال : لكى تحصل منه على ١٣٠ قرشا يجب ان تطلب عشرة جنيهات .

قلت : لن أطلب غير ماأستحق

وفى اليوم التالى جاءنى الحاج فتح الباب ، عينه ، وذاته ، ولكن الهيكل العظمى كان مكتسيا هذه المرة بجلد حى تحت نفس الخرق والاسمال

وهوى على يدى فقبلها غصبا ...

وسحبت قدمى بعنف وهو يحاول تقبيلها كذلك ، وقلت لنفسى ان الرجل قد يكون شيطانا ، ولكن حسبى منه انه يعرف بالجميل .

واخرج الحاج فتح الباب من جيبه عشر بيضات فوضعها على المكتب ، ثم هوى مرة اخرى على يدى يقبلها ، ويقول وصوته تخنقه العبرات :

انت رجل طيب ، وقد رددتنى الى الحياة ، وانا اعلم ان هذا ليس من مقامك ولكنى رجل فقير ، وفى عنقى أربعة أولاد !!

قال الطبيب الراوى :

انى لم اندم فى حياتى على عمل طيب فعلته مثل ندمى فى هذه اللحظة على انى لم أكن قد استمعت الى نصيحة شقيق الحاج فتح الباب !!

obeikandl.com